هـود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(الشعراء: ١٢٣ ــ ١٢٥)

صدق الله العظيم

بعد الطوفان.. وبعد أن رست سفينة نوح عليه السلام على الجودى.. وبعد أن جفت المياه وسطعت الشمس، وبدأت النباتات والزهور تملأ الأرض.. عاد الناس يباشرون حياتهم فى أرض الله الواسعة.. وعادوا إلى العمل والانتاج وإثراء الحياة على الأرض.

وكالعادة ومع مرور الزمن نسى الناس رحيق الروح، وما جادته من رسالات الله التى تدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وعمل الخير، وتجنب الشر.. فإذا بهم يلوذون بغير الله.. ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

كان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث.. ومن هؤلاء الثلاثة الذين انتشروا فى الأرض.. عمرت بذريتهم بلاد مختلفة..

وهناك حديث يروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

ـ «وَلَدُ نوح ثلاثة: سام.. وحام.. ويافث.

فسام أبو العرب وفارس والروم.

وحام أبو السود.

ويافث أبو الترك».

وهذا الحديث يعنى أن العرب والفرس والروم ينسبون إلى سام. . وأن الأجناس السوداء التى تسكن القارة الأفريقية وغيرها من القارات ترجع إلى حام. . أما أبناء الشمال الذين يقصدهم الرسول ويسميهم الترك فهم ينسبون إلى يافث.

وفى شمال حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية. . أو فى أرض الأحقاف كانت تقطن قبيلة عاد. . وقد انحرفت هذه القبيلة عن الطريق المستقيم بعد أن غرتهم قوتهم وأموالهم، وما أقاموه من حضارة شامخة. . فقد سكنوا القصور، وامتلأت أرضهم بالحدائق الغناء، وتخللتها العيون، وجداول الأنهار.

وكانت إرم أشهر مدن عاد. . وأسموها بهذا الاسم نسبة إلى جدهم إرم بن سام بن نوح.

ورغم ما حباهم الله من نعمة الثراء، إلا أنهم كانوا يعبدون الأصنام. . ونسوا دعوة نوح عليه السلام.

فإذا كان قوم نوح عبدوا «ودًّا وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا» وحاق بهم ما حاق من العذاب. . وأغرقهم الله بالطوفان فقوم هود عبدوا صنما أطلقوا عليه «صمود» وآخر أطلقوا عليه «الهتّار».

وجاءهم نبى الله هود. . من قبيلة يقال لها الخلود. . وصفه الرواة. . بأنه كان وسيما. . أبيض اللون. . كث اللحية. . فدعاهم

إلى نبذ عبادة الأصنام، والعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد.. ولكن كلماته لم تجد آذانا صاغية، ولا عقولا تفكر فيما يقوله لهم نبيهم.. وكلما دعاهم إلى ترك ما هم فيه من غواية الشيطان، زادوا إصرارا على التمسك بما درجوا عليه من عبادة أصنام صماء بكماء عمياء.. ولم يقتنعوا بكلام هود عليه السلام.

﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

كانوا يتباهون بقوة أجسادهم، وتمكنهم فى الأرض.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وتناسوا فى غمرة لهوهم وعبثهم، وبعدهم عن الطريق المستقيم، حقيقة أن الذى وهبهم كل ما يتمتعون به من ترف أقوى منهم، وأنه قادر على الذهاب بهم، ليأتى بآخرين يعمرون الأرض ويعبدون الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

كان ردهم دائما كلما حاول أن يثنيهم عما هم فيه من خلال قولهم له:

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ويعاود النبى الكريم دعوتهم بالحسنى، ويحاول إقناعهم بأنه ليس سفيها وأنه لا يأخذ أجرا على دعوته تلك، وما يريد إلا الإصلاح.. ولكن قومه أصروا على عنادهم..

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

وطال الحوار.. وطال لجاجهم وبعدهم عن الحقيقة.. وأنذرهم نبى الله بأن الدمار سيعمهم جميعا، ولن تنفعهم بعد ذلك أموالهم وقصورهم وأجسادهم القوية.. وطلب منهم أن يستغفروا ربهم، ويقلعوا عن معاصيهم، وإلا فكل شىء فى حياتهم سينتهى ويعم البلاء والهلاك.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وضاق بهم وضاقوا به وتحدوه أن يأتى بالعذاب الذى يعدهم به:

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعرف: ٧٠].

وبدأت النذر.. أمسكت السماء عن المطر.. وبدأت بساتينهم ومزارعهم تعانى من الجفاف، واقترب وعد الله.. وبدلا من أن يعودوا إلى عقولهم، ويفكروا فيما يقوله لهم نبيهم.. تمادوا فى عنادهم وكفرهم.. وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما حدث منهم ولهم فى سور مختلفة كما فى سورة الأعراف، وهود، والمؤمنين، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر..

يقول تعالى فى سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

ويقول فى سورة الحاقة:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

ويفسر لنا الدكتور «محمد سيد طنطاوى» ما جاء فى سورة الحاقة بقوله فى (التفسير الوسيط للقرآن الكريم):

«أى أرسل الله تعالى على هؤلاء المجرمين الريح التى لا يمكنها التخلف عن أمرة فبقيت تستأصل شأفتهم، وتخمد أنفاسهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما). . أى متتابعة ومتوالية حتى قطعت دابرهم ودمرتهم تدميرا.

وقوله (حسوما) يصح أن يكون نعتا لسبع ليال وثمانية أيام، ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل من لفظه، أى تحسبهم حسوما.

ثم صور سبحانه هيئاتهم بعد أن هلكوا فقال:

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية).

والخطاب فى قوله (فترى . .) لغير معين. والفاء للتفريع على ما تقدم، والضمير فى قوله (فيها) يعود إلى الأيام والليالى، أو إلى مساكنهم. وقوله (صرعى) أى هلكى، جمع صريع كقتيل وقتلى، وجريح وجرحى. والأعجاز جمع عَجُز. والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها. و(خاوية) أى ساقطة، مأخوذ من خوى النجم، إذا سقط للغروب أو من خوى المكان إذا خلى من أهله وسكانه، وصار قاعا صفصفا بعد أن كان ممتلئا بعمَّاره.

أى أرسل الله تعالى على هؤلاء الظالمين الريح المتتابعة لمدة سبع ليال وثمانية أيام فدمرتهم تدميرا. وصار الرائى ينظر إليهم فيراهم وقد ألقوا على الأرض هلكى، كأنهم فى ضخامة أجسادهم جذوع نخل ساقطة على الأرض، وقد انفصلت رءوسها عنها.

وعبر سبحانه بقوله: (فترى القوم . .) لاستحضار صورتهم فى الأذهان، حتى يزداد المخاطب اعتبارا بأحوالهم، وبما حلَّ بهم.

والتشبيه فى قوله: (كأنهم أعجاز نخل خاوية). . المقصود منه تشنيع صورتهم، والتنفير من مصيرهم السيىء، لأن من كان هذا مصيره، كان جديرا بأن يتحامى، وأن يتجنب أفعاله التى أدت به إلى هذه العاقبة المهينة.

والاستفهام فى قوله: (فهل ترى لهم من باقية). . للنفى، والخطاب ـ أيضا ـ لكل من يصلح له، وقوله (باقية) صفة لموصوف محذوف. . أى فهل ترى لهم من فرقة أو نفس باقية».

لقد دمرت عاد.. وخرج نبى الله هود مع من اتبعه من المؤمنين بعيدا عن هذه البلاد التى تباهت بحضارتها.. فأبادها الله.. وأيقن المؤمنون بنصر الله وفتحه.. وعاد النور لينشر ضياءه على الأرض.. وعاد المؤمنون يعبدون الله الواحد..

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقصة هود لم تذكر فى التوراة.. وقد ذكرها القرآن الكريم لتكون عبرة وعظة لمن ينكرون الخالق لكى يتدبروا أن عاقبة الإنكار والظلم، الإبادة والعذاب، لأن الله قادر على أن يخلق آخرين يؤمنون به ويتقونه ويعمرون الحياة من خلال قيم رسالات الله التى أرسل بها رسله. لتكون نور وهداية للناس، فيعبدون الله على بصيرة، ويعيشون الحياة على ضوء من رسالات الله.

ويقول ابن اسحاق الثعلبى أن هود عليه السلام عندما مات دفن فى حضرموت.

والدراسات التى تحدثت عن نبى الله هود عليه السلام لم تتعرض للمرأة فى حياته.. فقد ركزت على أثاره ودعوته للإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر.. وركزت أيضاً على عقاب الله لقومه ليكونوا عبرة لمن يعتبر..

* * *